في الرؤية الإنجيلية المصلحة لعقيدة العمل

رجائي محي

لقد شغلت العلاقةُ بين الإيمان والعمل قلبَ الكنيسة وذهنها منذ القرون الأولى للمسيحية. ويمكن للقارئ الدارس لكلمة الله أن يستخلص عدم وجود أي تصريح كتابي في العهد الجديد يعلِّم بترك المسيحيين لأعمالهم اليومية، أو التقليل من شأن حياتهم العادية لاختبار تبعية المسيح. ورغم أن المسيح والرسل الأوائل باركوا الأعمال العادية بمختَلَف أشكالها، إلا أن المسيحيين، مع مرور الزمن، تأثروا بمناهج فكرية وثقافية عديدة أخلَّت بمفهومهم السليم لعقيدة العمل في حياتهم الطبيعية. وخلال هذه المقالة القصيرة، سأعرض طرحًا موجزًا عن تاريخ الفهم المسيحي لعقيدة العمل خلال ثلاث حقب رئيسية هي: الكنيسة الأولى وعصر الآباء (100- 500م)، حقبة العصور الوسطى (500- 1500م)، وعصر الإصلاح (1500- 1800م). وخلال هذا الشرح المختصر، سنركز على عصر الإصلاح، وبشكل خاص على اثنين من قادته، لوثر وكالڤن. وفي النهاية سيتم طرح محاولة تحليلية لفهم عقيدة العمل في ثقافتنا المصرية، متبوعة بمبادئ مستوحاة من التراث المُصلَح، لإبراز قيمة العمل في اللاهوت الإنجيلي.

وُلِدَت كنيسةُ العهدِ الجديد في بيئةٍ يهوديةٍ من ناحية، وخلال وقتٍ كانت فيه الثقافة الهيلينية مهيمنةً على العالم من ناحية أخرى. ومن الواضح أن الثقافة اليهودية، وقت الكنيسة الأولى، كانت تقدِّر قيمةَ العمل والمِهَن بمختَلَف أشكالها؛ فنرى المعلم، الطبيب، النجار، الصياد، والتاجر... إلخ. وقد أعطى العهدُ القديمُ قيمةً عاليةً للعمل، حتى العمل البسيط؛ إذ كان من العادات المتَّبعة عند الأسر اليهودية تدريب أطفالهم الذكور على الأعمال الحرفية، حتى يقدِّروا قيمة العمل بأيديهم.[1] ورأى اليهود العمل كجزء من مقاصد الله في خليقته. في الواقع، كان من الملاحظ أن المعلمين اليهود، على عكس اليونانيين في زمانهم، لم يكن من المتوقع أن يعيشوا على مساهمات

[1] Hershey H. Friedman, "The Impact of Jewish Values on Marketing and Business Practices," *Journal of Macromarketing* 21 (June 2001), 80.

تلاميذهم، ولكن كان معلومًا للجميع أن لديهم عملًا أو حرفةً يمكنهم به إعالة أنفسهم وأسرهم. ربما ترجع جذور هذا الاهتمام بقيمة العمل للعهد القديم وتعليمه عن عقيدة الخلق، وعن رؤيتهم اليهودية لمفهوم ملكوت الله ومجيء المسيا كملك أرضي.

واتسمتِ الفلسفةُ اليونانيةُ بالنظرةِ الثنائية للحياة؛ حيث قسَّمت الحياةَ لما هو ماديّ وما هو غير ماديّ. فبالنسبة لأفلاطون كانت الآلهة تنتمي للعالم غير المادي، ويحتاج الإنسان أن يترفَّع ويسمو عن هذا العالم المادي ليصير كالآلهة، ويشارك في حالة الوجود التأملي الدائم.[2] ولقد وضعت الفلسفةُ اليونانيةُ العملَ الحِرَفيَّ، بكل أنواعه، في مكانةٍ أقل من الاتجاه التأمُّلي الفلسفي. فنجد أرسطو يرى أن الأشخاص الذين لا يعملون يتمتعون بحظ أوفر من غيرهم، لأن لديهم من الوقت ما يسمح لهم بالانشغال بحياة التأمل. فهو يعتقد أن الحياة التأملية تحقق للبشر أعلى مستويات السعادة. وقد تجلى هذا المنهج الفكري خلال الترتيب الاجتماعي الطبقي في الثقافة اليونانية؛ فكانت الطبقة الأرستقراطية تنال قسطًا كبيرًا من الوقت للراحة والتأمل، في حين أن الذين يعملون بالحِرَف المختلفة كانوا من الطبقة الكادحة الأقل مجتمعيًّا، أو العبيد. وبذلك قللت الثقافةُ الهيلينيةُ من شأنِ العمل اليومي؛ إذ كانوا يعتبرونه سمةً من سمات الاندماج في العالم المادي الذي كان يأتي في مستوى متدنٍّ لرؤيتهم الحياتية.[3]

وتأثر الفكرُ المسيحيُّ في بداياته بكلا المنهجين، اليهودي واليوناني؛ فخلال القرن المسيحي الأول لم يكن هناك أيُّ تقليل أو تهميش لقيمة العمل المهني، إذ كان يسوع كإنسان معروف بين اليهود بـ"النجار" (مرقس 6: 3)، وقد كان من بين أتباعه الصياد، الطبيب، جابي الضرائب... وغيرهم. كان بولس أيضًا يعمل في مهنة صناعة الخيام (أعمال 18: 3)، وكان يعول نفسه من خلال عمله. كان العمل، بالنسبة لخدام الكنيسة الأولى،

---

[2] Lee Hardy, *The Fabric of This World: Inquiries into Calling, Career Choice, and the Design of Human Work* (Grand Rapids, MI: W.B. Eerdmans, 1990), 6-11.

[3] Paul Marshall. *A Kind of Life Imposed on Man: Vocation and Social Order from Tyndale to Locke*, (Toronto: University of Toronto Press, 1996), 21-22.

وسيلة مساعدة للاهتمام بالخدمة، وفتح أبواب جديدة لها في أماكن مختلفة. وقد حذر بولس أهل كنيسة تسالونيكي من الكسل، وحثَّهم على العمل، معطيًا نفسه والرسل مثالًا (2تس 3: 6-15). وهكذا اندمج المسيحيون الأُوَل في العمل اليومي بكافةِ أشكاله، ولكن من منطلق إيمانهم المسيحي وأخلاقياتهم المختلفة عن العالم الوثني آنذاك. إلا أنه مع نهاية القرن الثاني و بداية القرن الثالث، ظهرت بعض التوجهات اللاهوتية المسيحية المتأثرة بالفلسفة اليونانية. فنرى يوسابيوس يكتب عن إيمانه في وجود "نمطين للحياة" يمكن أن يعاشا؛ "الحياة الكاملة" و"الحياة العادية." والحياة الكاملة، في رأيه، هي تلك النوعية من الحياة التي تتجلى في بعض الوظائف المقدسة والتي تدعو لحياة التأمل وتكرِّس لها، وهي تخص في المقام الأول الكهنة والرهبان والراهبات. وهو يضع هذه النوعية من الحياة في مقابل "الحياة العادية" والتي تتجلى في كل الوظائف الدنيوية الأخرى التي تكرس للعمل "action" في المجال العام، مثل الزراعة، الصناعة، التجارة، السياسة... إلخ.[4] ويقارن أوغسطينوس، أيضًا، بين "الحياة العاملة" و"الحياة التأملية." ورغم إثناء أوغسطينوس على المهن الحِرَفية بكافة أشكالها، إلا أن حياة التأمل والتفكر لديه كانت تأتي في مقام أسمى. وتأثره بالفلسفة الأفلاطونية انعكس بوضوح على تصوره للمدينة الفاضلة التي كتب عنها من منظور مسيحي متأثرًا بالفلسفة اليونانية.[5]

وهكذا كرست هذه التوجهات لثنائيةٍ دينيةٍ بين الحياة الأرضية ومجالها، وبين المملكة السماوية وقِيَمِها المُثلَى. لذا تضررت أيضًا النظرةُ المسيحيةُ للعمل الأرضي بكونه جزءًا من ملكوت الله، وبرزت على ساحة الإيمان المسيحي بعضُ التوجهات التي تجنح لعزلة العالم والاتجاه إلى العيش في الصحاري والبراري، طالبين حياة التأمل والانشغال بالصلوات والعبادة. وقد أوجد هذا التعليم تربةً خصبةً للنهج اللاهوتي الثنائي الذي تبنته

[4]Eusebius of Caesarea, "Demonstration of the Gospel 1.8 ET," *in The Proof of the Gospel Being the Demonstratio Evangelica of Eusebius of Caesarea*, vol 1, Trans. W.J. Ferrar (London: S.P.C.K, 1920), 48-50.
[5] Brian J. Walsh and Richard Middleton, *Transforming Vision: Shaping a Christian World View* (Downers Grove, IL: Intervarsity Press, 1984), 99.

فيما بعد كنيسة العصور الوسطى Roman Catholic Church، والذي يضع الكنيسة والإكليروس في مقام أسمى من باقي مجالات الحياة.

مع اعتلاء قسطنطين عرش الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي، وإعلان المسيحية الديانة الرسمية للبلاد، تغيرت الأوضاع كثيرًا. فتدريجيًّا، صار هناك تمييزٌ واضحٌ بين رجال الدين والعلمانيين. وصار لوظيفة الإكليروس موقعٌ فوقيٌّ على كل المهن الأخرى. ونادت كنيسة العصور الوسطى بأن أي عمل في المجال العام يظل عرضةً لأن يكون وسيلة للشر، وتحت سلطان الخطية مالم تكرِّسه الكنيسة وتعتمده بخضوعه لها. وهكذا صار يُنظر للعلمانيين وأصحاب المِهَن والحِرَف المختلفة، إما داخل الكنيسة في درجة أقل من أصحاب الوظائف الكنسية، أو خارج سلطان الكنيسة بكونهم ملامين ومعرضين ليكونوا أدوات للشر وآنية للإثم. وصار الوجه الآخر من تبجيل حياة الرهبنة والإكليروس هو التقليل من شأن الأعمال الدنيوية العادية.[6] وصار للكهنوت الطقسي شأن ومكانة وسلطان على البشر في كل مجالات الحياة.[7] ولذا تسبب المنهج الكاثوليكي في العصور الوسطى في ازدواجية قاسية، بين ما هو روحي وما هو مادي، ما هو كنسي وما هو عالمي.

بعدما أشعل لوثر بدايةَ ثورة الإصلاح في القرن السادس عشر، عادت الكنيسةُ لتفكر في عقيدة العمل من منظور مسيحي كتابي أصيل. وفي ضوء الصياغة الإيمانية الكتابية لعقيدة "كهنوت جميع المؤمنين" التي نادى لوثر بها، تغيرت النظرة المسيحية للأعمال والمِهَن المختلفة التي يشغلها الناس، ليراها المصلحون فيما بعد على أنها دعوة للمشاركة في العمل في ملكوت الله. وفيما يتعلق بالعمل اليومي، تأثر لاهوت لوثر عن العمل

[6] Edward Hahnenberg, *Awakening Vocation: A Theology of Christian Call*. (Collegeville, MN: Liturgical Press. 2010), 21, 22.
[7] Herman Bavinck, "Calvin and Common Grace," in *Princeton, N.J* [Princeton Theological Review Association], 1909, 438-440.

بخلفيته كراهب أوغسطيني. وقد تجلت رؤية لوثر للعمل من خلال مساواة العمل العادي في القيمة مع العمل الكنسي والخدمة، والتأكيد على أهمية ممارسة بر الناموس في فهم عقيدة العمل الأرضي كجزء أصيل فيها.

اتضح في لاهوت لوثر حرصه على تأكيد قيمة العمل الدنيوي، وقدسيته، كالعمل في المجال الديني أو الكنسي تمامًا. فقد كان يعتبر أن قيمة العمل اليومي، عند الله، لا تقل بأي حال من الأحوال عن قيمة الحياة التي تُقضى في عبادة الله وخدمته داخل الكنيسة. وفي الوقت الذي اعتبرت فيه كنيسة روما أن أعمال الخير هي كل ما يتم داخل أو تحت إشراف المؤسسة الكنسية، رأى لوثر الخير في الأعمال العادية اليومية في أي مجال خارج أو داخل الكنيسة، وفي نقده لفهم الكنيسة الكاثوليكية آنذاك لقيمة العمل، كتب لوثر:

> "إذا سألت أكثر، هل يعتبرونه أيضًا عملًا جيدًا عندما يعملون في تجارتهم، ويمشون، ويقفون، ويأكلون، ويشربون، وينامون، ويقومون بجميع أنواع الأعمال من أجل قوت الجسد أو من أجل الرفاهية العامة، وما إذا كانوا يؤمنون أن الله يسر بهم بسبب مثل هذه الأعمال، ستجدهم يجيبون "لا"؛ وهم يعرّفون الأعمال الصالحة بشكل ضيق، لدرجة أنها صممت لتشمل فقط الصلاة في الكنيسة والصوم، والصدقة. والأعمال الأخرى يعتبرونها عبثية، ويعتقدون أن الله لا يهتم بها. لذلك من خلال عدم إيمانهم المقيت يحدون ويقللون من شان خدمة الله، الذي تكون خدمته في كل ما يتم فعله أو التحدث به أو التفكير به بإيمان."[8]

متأثرًا بالفكر الأوغسطيني، بنى لوثر منهجه اللاهوتي في الاعتقاد أن الإنسان المسيحي يعيش صراعًا مستمرًّا في الحياة بين مملكتين Two-Kingdom approach، مملكة الأرض ومملكة السماء، واحدة يرأسها إبليس، والأخرى يسود عليها الله، واحدة الخليقة العتيقة، والأخرى الخليقة الجديدة؛ فالمسيحي هو مواطن ينتمي

[8] Martin Luther, *Treatise on Good Works*, 2009, 30.

للمملكتين. والمسيح يحكم في المملكة السماوية بالإنجيل، وفي الأرضية بالناموس.[9] ولذا يتوجب على المسيحي، من وجهة نظر لوثر، ألا يعتزل هذه الحياة، فعليه أن يعيش حياته العادية كمواطن أرضي دون الحاجة إلى معاداة هذا العالم أو الهروب منه. واتفق لوثر مع أغسطينوس في التأكيد على ضرورة أن يعيش المسيحي حياته كسائح أو زائر غريب، ناظرًا ومنتظرًا للبيت السماوي، مما انعكس على رؤيته للعمل لكونه مرحلة انتقالية تحتاج أن نحياها بإيمان وأمانة. لذلك ركز لوثر على أهمية البر والتقوى في التعامل مع عقيدة العمل، أي الالتزام ببر الناموس في مجال العمل، لكونها جزءًا من الحياة الأرضية.[10] وهنا يمكن فهم رؤية لوثر للعمل بكونه تطبيقًا للمبدأ الكتابي المتعلق بمحبة الله والقريب.

بعد لوثر جاء جون كالڤن ليقدم فهمًا مصلحًا لعقيدة العمل، مكملًا لما قدمه لوثر. وفي مقالته الشهيرة حول مفهوم العمل عند لوثر وكالڤن،[11] وضع إيان هارت[12] Ian Hart ستة محاور رئيسة لفهم رؤية كالڤن لعقيدة العمل، سنسردها بإيجاز:

أولًا: نقطة انطلاق رئيسة

كانت نقطة ارتكاز مهمة عند كالڤن في فهمه لعقيدة الحياة المسيحية هي، كما وصفها في كتابه أسس الدين المسيحي، "إنكار الذات."[13] ويرتبط هذا المبدأ عند كالڤن ببعدين رئيسين؛ يصف الأول علاقة الإنسان بالله، فإنكار الذات يعني أولًا العيش لمجد الله. ويصف الثاني علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، والتي تمثل محبة القريب، وطلب الخير له وتقديمه على النفس.[14] وخلال هذين البعدين، رسم كالڤن رؤيته التفصيلية حول مفهوم العمل.

---

[9] Steven A. Hein, “Luther on Vacation: An Ordinary Life for Ordinary Saints,” In *Reformation & Revival: A Quarterly Journal for Church Leadership* (Carol Stream, IL: Reformation & Revival Ministries, 1999), 131.

[10] Ibid, 134-140

[11] Ian Hart. "The Teaching of Luther and Calvin About Ordinary Work: 2. John Calvin (1509-1564)". *Evangelical Quarterly*. 1995.

[12] مرسل أيرلندي خدم في جنوب شرق آسيا، وقد كتب أطروحة الدكتوراة تحت عنوان "A Theology of Everyday Life"، وهذا المقال هو جزء من رسالته.

[13] *Institutes at the Christian Religion*, 3, VII.

[14] *Institutes of the Christian Religion*,3. VII. 4, 8-10.

ثانيًا: التفويض الوارد في سفر التكوين واللعنة

يرى كالڤن، كما كان يكرر دائمًا، أن الإنسان خُلِقَ ليعمل. ومع أن العمل كان مبهجًا وملذًّا لآدم في بداية الخلق، إلا أنه صار مرهقًا ومتعبًا له بعد السقوط. وقد صارت لهذه اللعنة التي أصابت العمل قيمةً تربويةً؛ إذ ساعدت الإنسان على إدراك حقيقي لحالته وشره، ودفعته إلى التوبة.[15] ومع ذلك، يؤمن كالڤن أن اللعنة المرتبطة بالعمل قد رُفعت جزئيًّا خلال عمل المسيح، مقتبسًا في ذلك ما جاء في مزمور 127: 2 شارحًا:

> "ومع ذلك، غالبًا ما يرفع الله جزءًا من هذه اللعنة عن أبنائه، لئلا ينحنوا تحت هذا الحمل. هذا هو معنى النص، "تُبَكِّرُوا إِلَى الْقِيَامِ، مُؤَخِّرِينَ الْجُلُوسَ، آكِلِينَ خُبْزَ الأَتْعَابِ. لكِنَّهُ يُعْطِي حَبِيبَهُ نَوْمًا."، لأن ما أفسده آدم قد أصلحته نعمة المسيح ... وخففت رحمة الله من مرارة ذلك العقاب، بحيث يكون هناك شيء من البهجة في العمل الذي يقوم به الإنسان."[16]

فمن خلال عمل المسيح، كما يرى كالڤن، عادت للإنسان سيطرتُه على الطبيعة، بعد أن كان قد فقدها في السقوط. ولهذا السبب يعتقد أن العمل هو واجبٌ مسيحيٌّ منبعه التفويض الإلهي الذي تم استرداده وتأكيده في المسيح.

ثالثًا: مفهوم الدعوة

اشترك كالڤن ولوثر في وصف عمل الإنسان اليومي بكونه دعوة من الله. وارتبط شرح كالڤن لمفهوم العمل بكونه دعوة من الله بعدة مجالات لاهوتية، أهمها:

أ- أعمال العناية الإلهية: إذ يعتقد كالڤن أن نمط حياة كل إنسان هو تدبير إلهي مُعَدٌّ من الله. وهكذا يرتبط مفهوم العمل لديه بعقيدة العناية الإلهية.[17] لذا يؤمن كالڤن أن الله، في عنايته، أعد لكل إنسان دورًا ووظيفة يقوم بها، وعلى الإنسان اكتشاف هذا التكليف الإلهي.

---

[15] Jean Calvin, *Genesis: Commentary*, (Edinburgh: Banner of Truth Trust, 1979) 2: 15& 3: 19.
[16] *Ibid* 3: 19
[17] *Inst*. 3. X. 6

ب- الاستمرار في الدعوة: يرى كالڤن أن دعوة الله للإنسان أن يستثمر حياته في عمل بعينه، هي لأجل تحقيق الإستقرار للإنسان، ولحمايته من الاضطراب والتوتر في حياته اليومية.[18]

ج- خدمة الآخرين: إن الغرض من دعوة الله للإنسان هي خدمة الآخرين في شركته معهم، وبالتالي أن يُخدَم هو أيضًا من خلالهم. فالقيام بعمل أو وظيفة معيَّنة يجعل الإنسان يشعر بحاجته لغيره، وحاجتهم له. لذا، فإن العمل هو رابطٌ للإنسان بقريبه، وسببٌ من أسباب الحفاظ على العلاقة. وبشكل أدق، فإن العمل يخدم نفس الهدف الذي تقصده مواهب الروح القدس المختلفة من شركة وتواصل عميق بين الناس.[19]

د- المغزى الروحي للعمل العادي: إن وصف كالڤن للعمل العادي كدعوةٍ من الله، أعطى للعمل قيمةً ساميةً؛ إذ يستمد العملُ روحانيتَه من كونه معيَّنًا من الله. وهكذا رفض كالڤن رؤية كنيسة العصور الوسطى بتصنيف أنواع الأعمال لأعمال ذات درجات روحية سامية، وأخرى أقل روحانية.[20] فيعتبر كالڤن أن أي عمل نافع للبشرية مهما كانت طبيعته هو نابع من روح الله القدوس.

ه- القيمة المتساوية لكل أنواع الأعمال: خلال مفهومه للعمل كدعوة إلهية، ساوى كالڤن في القيمة بين كل الحِرَف ومختلف الوظائف؛ فلكل عمل وزنه وقيمته في عيني الله.

رابعًا: يعتمد النجاح في العمل على بركة الرب

يرى كالڤن أن النجاح الحقيقي في العمل يقوم على مباركةِ الله له؛ فيعتقد أننا ينبغي أن نفهم تثنية 8: 3 / متى 4: 4 بطريقةٍ حرفيةٍ وليس فقط روحية؛ فكلُّ كلمةٍ تخرج من فم الله هنا تعني بركة الله للأمر. وقد ظهر ذلك جليًّا في شرحه لمزمور 127: 1 "إِنْ لَمْ يَبْنِ الرَّبُّ الْبَيْتَ، فَبَاطِلًا يَتْعَبُ الْبَنَّاؤُونَ. إِنْ لَمْ يَحْفَظِ الرَّبُّ الْمَدِينَةَ،

---

[18] *Ibid*.
[19] *Calvin's Commentaries on the NT*, tr. T. H. L. Parker, Grand Rapids, 1989, *ad wc.* Mt 25:20.
[20] *Inst*. 4. XIII. 11, 16.

فَبَاطِلًا يَسْهَرُ الْحَارِسُ." إذ يرى كالڤن أن كاتب المزمور يعلم أن أي إمكانيات وأعمال ولو بسيطة هي قيّمَة لأن الله يباركها، فقيمة ما نعمل هنا مشروطة بمباركة الرب له.[21]

خامسًا: الأمانة في العمل

رأى كالڤن أن عدم الأمانة في العمل هو انتهاك لمبدأ حب القريب. فكتب عن غير الأمناء قائلًا:

> "لا يقتصر الأمر على هؤلاء اللصوص الذين يسرقون حق الآخرين سرًّا، بل أولئك الذين يسعون أيضًا إلى الربح من خسارة الآخرين، ويكومون الثروة بطرق غير مشروعة، وهم أكثر تفضيلًا لمصلحتهم الخاصة من تحقيق العدالة ... ولكي لا يديننا الله بدعوى أننا لصوص، يجب أن نسعى قدر الإمكان إلى أن يحتفظ كلُّ شخص بما يمتلكه بدون خسارة، وأن يتم تعزيز مصلحة غيرنا "القريب" مثل مصلحتنا تمامًا."[22]

سادسًا: الأعمال، التجارة، الفائدة، والمال

على خلاف لوثر، شجع كالڤن التجارة والاستثمار، وتحقيق الربح. وفي السؤال عن الفوائد في الاستثمارات المالية، لم يرفض كالڤن الفائدة، لكنه أدان الفوائد المبالغ فيها من ناحية، أو التي تُفرَض على فقير أو محتاج من ناحية أخرى. وعندما طبق نظام الفائدة في جينيڤ، أوضح كالڤن أن هذا النظام يختلف تمامًا عمَّا يرفضه العهد القديم مما يتعلَّق بالربا. ففي العهد القديم كان الفقير يقترض عن مضض لاحتياجه الشديد إلى المال، أما في جينيڤا فكانوا يدفعون الفائدة بفرح، لأن القرض مكَّنهم من عمل استثمار ناجح فاقت قيمته قيمة الفائدة بكثير. ولذا يرى كالڤن أننا ينبغي أن لا نقضي على أمر بكونه رِبَا بناءً على تصريح أو بيانٍ كتابيٍّ في موقف محدَّد، ولكن وفقًا لمبادئ العدالة.[23]

---

[21] Calvin: *Commentaries,* tr. J. Haroutunian, (London: 1958), 340- 342.
[22] Cited by J. H. *Leith,john Calvin's Doctrine qfthe Christian Life,* Westminster, 1989,191-192.
[23] John Calvin, *Commentary on the Psalms,* tr. Arthur Golding, (London, 1571), ad loco Ps. 15.

الإيمان المسيحي ومفهوم العمل في واقعنا المصري المعاصر: (التأصيل اللاهوتي المصلح، ومردوده على الكنيسة والمجتمع):

مرت سنون طويلة على ثورة الإصلاح الديني، فالزمان غير الزمان، والسياق الثقافي والحضاري مختلف، فكيف يمكن للكنيسة أن ترى في الإنجيل قوة مغيرة لكل العصور وكل الثقافات؟ فمجتمعنا العربي بوجه عام، والمصري على وجه الخصوص لديه العديد من التحديات في الفهم والممارسة الخاصة بقيمة العمل. ولا شك أن فهم مجتمع الكنيسة لعقيدة العمل تأثر سواء بعوامل الثقافة الخارجية، أو داخليًا بأنماط تعليم لاهوتي بعينها. ولإيماني برسالة الكنيسة ودورها في تغيير المجتمعات، سأعطي تركيزًا خاصًّا في السطور التالية على العوامل الثقافية واللاهوتية التي ساهمت في فهم غير متزن لقيمة العمل داخل الكنيسة. وسأختم ببعض المبادئ اللاهوتية المصلحة التي يمكن أن تساهم في دفع الكنيسة لفهم أعمق لعقيدة العمل.

لا شك أن الكنيسة كمكوّن مجتمعيّ تتأثر في السياقات المختلفة بالمحتوى الثقافي والحضاري السائد، سواء على المستوى الفكري أو العملي. ففي الوقت الذي تكرّس فيه الثقافةُ المحيطةُ للتمييز الفئوي بين مهنة وأخرى، ينعكس الوضع على الكنيسة أيضًا؛ حيث إنها تعزز أحيانًا هذا الحس الجمعي بالتمييز الفئوي سواء في العبادة أو في النظم الإدارية. وليس المقصود هنا اعتراف الكنيسة بالتنوع الطبيعي بين الفئات العاملة أو بين أنواع الأعمال المختلفة، لكن التصنيف التراتبي داخل الجماعة، وأحيانًا التفرقة في التعامل بين فئة وغيرها. وخير مثال لذلك ما انتشر في الآونة الأخيرة تحت مسميات تحمل رسائل عنصرية مثل، اجتماع إخوة الرب، أو اجتماع العمال... وغيرها.

وعلى الصعيد الفكري واللاهوتي المصري، تأثرت الرؤية المسيحية للعمل بعدد من التيارات اللاهوتية التي خلقت أنماطًا عقائدية تحتاج إلى مراجعةٍ مستمرةٍ. وصارت الكنيسة تنظر إلى قضية العمل بمستويات مختلفة. ولعلنا نجد في كتاب H. Richard Niebuhr "المسيح والحضارة" (Christ and Culture)[24]،

[24] H. Richard Niebuhr, *Christ and Culture* (New York: Harper & Brothers, 1951).

منهجًا تحليليًّا متكاملًا حول وجهات النظر المختلفة التي يتبناها المسيحيون تجاه الحضارة. سنبني على موازاته الكيفية التي ينظر بها المسيحيون أحيانًا للعمل في الحياة اليومية. ولأن بعض المفاهيم التي صاغها Niebuhr تتطابق مع المناهج المسيحية المتبعة في فهم العمل، سأرتكز في هذا التحليل على ثلاث من هذه الرؤى التحليلية التي يمكن تطبيقها على قضية العمل في المجال المسيحي المصري. من الرؤى التي طرحها Niebuhr، "المسيح فوق (أسمى من) الثقافة،" "المسيح والحضارة متفارقان،" "المسيح يحول الثقافة." وهكذا في الأوساط الإيمانية هناك من يرى "الحياة المسيحية فوق العمل الأرضي،" "الحياة المسحية والعمل متفارقان،" أو "الحياة المسيحية تصنع تحولًا في مفهوم العمل."

أولًا: الحياة المسيحية فوق العمل الأرضي

ينبع هذا التوجه اللاهوتي أساسًا من الازدواجية الفكرية التراتبية التي تصنف حياة المسيحيين إلى سماوي وأرضي، ديني ودنيوي، أو روحي ومادي، ودائمًا الجانب الأول أكثر سموًّا من الأخير. فيقدم هذا النهج اللاهوتي العملَ في هذه الحياة الأرضية بكونه دورًا وظيفيًّا أقل سموًّا من العبادة والحياة الروحية، لأن حياة المسيحي تركيزها الأساسي هو انتظار الوجود في البيت السماوي. لذا يعاني أصحاب هذا التوجه من أزمة الاغتراب التي أصابت الكثيرين من مسيحيي مصر. وهناك عدة أسباب تعزز تجذير هذا المنهج الفكري، وتدفع الجماعة المسيحية المصرية للسلوك بمقتضاه. أول هذه الأسباب هو أزمة الأقلية[25]، بكل ما يعقبها من تحديات ومصاعب تواجهها في مجال العمل، وشعورها بعدم حصولها على كل حقوقها دون تمييز. ثاني هذه العوامل يكمن في النزعة الدينية التي تفضل اعتزال هذا العالم عن الاندماج فيه، والذهاب للصحراء والبراري للتعبد. ورغم أن هذا التوجه الإيماني لعب دورًا هامًّا في تاريخ الكنيسة متجليًا في حركة الرهبنة والأديرة العامرة بالإيمان، إلا أن التطبيق غير المتزن للأمر قد يدعم عند البعض روح العزلة والانسحاب من المجال المجتمعي العام. أخيرًا، ساهم في تعزيز هذا التوجه اللاهوتي أيضًا انتشار التيار الكاريزماتي، الذي ينادي أحيانًا، بعدم

[25] أندريه زكي، **الأقباط والثورة** (القاهرة: دار الثقافة،)، 80—83، 90.

الانشغال بما يدور في العالم هنا[26]، والانشغال رأسًا بالعبادة والصلوات، نظرًا للفهم غير المكتمل لمفهوم العالم بكونه مجالًا للخطية والشر وينبغي عدم الارتباط به لأنه زائل.

وقد أثر هذا التوجه بشكل كبير في محتوى العبادة، سواء في فهم بعض النصوص الكتابية، أو في محتوى التراتيل المسيحية التي يتغنى بها المسيحيون في مصر. فصارت هناك نصوص محددة يتم التركيز عليها، خاصة في وقت الأزمة أو الضيق، مثل عبرانيين 11: 13-16؛ رؤيا يوحنا 21: 1-27؛ يوحنا 18: 36؛ و متى 4: 8-10.[27] وكررت الكنيسة أغنيات اغترابها مثل "العالم يبني ويزرع... لكن أنا مش من هنا، ده هنا عالم فاني... لا مال ولا جاه ولا غنى، أنا لي وطن تاني."[28] أو "غريب أنا غريب... والأرض ما فيها مكاني."[29] وهكذا أضحت النظرة المسيحية للعمل الأرضي بكونه مستوى أقل من الحياة الإيمانية والعبادة، مما أثر سلبًا على فهم مسيحيي مصر، أحيانًا، لقيمة العمل.

ثانيًا: الحياة المسيحية والعمل الأرضي، نظيران متفارقان

وفي هذه الرؤية الإيمانية تسير الحياة الأرضية والحياة الإيمانية في خطين متوازيين، دون تداخل أو تحارب. وأصحاب هذه النظرة يتبنون تفسيرًا خاصًّا لتعبير الرب يسوع "أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ" (مرقس 12: 17)؛ فهم يفهمون أن ما يخص الحياة الأرضية، يختلف عمَّا يخص السماوية، وعلى المسيحي تتميم الاثنين دون أن يقحم إحداهما في الأخرى، فكليهما مهم وضروري للإنسان المسيحي. فيمكن للفرد أن يكون مؤمنًا متعبدًا في الكنيسة، وفي عمله ينبغي أن يسلك بما تقتضيه مبادئ السلوك المجتمعي الخاص بمهنته. والنسخة الأكثر اتزانًا في هذا النهج الفكري، تعتَبِر الإيمان المسيحي هو مجرد منبع أخلاقي للإعانة في تحقيق مستوى أفضل من السلوك في الحياة العامة، ليس أكثر. تتفق هذه الرؤية، بصورة جزئية، مع اللاهوت اللوثري

---

[26] مكرم نجيب، **الحركة الكاريزماتية** (القاهرة: دار الثقافة، 1987)، 56.

[27] صموئيل حبيب، **الكنيسة والدولة** (القاهرة: دار الثقافة، 1990)، 21.

[28] ترتيلة شهيرة في العالم الكنسي، وهي ترتيلة جميلة وليس المقصود هنا رفض هذه الروح الجميلة للتشوق للسماء، لكن الفهم غير المكتمل لدى البعض بأن كل ما يشغلنا يجب أن يُختزل في حياة ما بعد الأرض.

[29] ترتيلة كنسية معروفة، وبنفس المنطق، الغرض هنا هو دعوة المجتمع الكنسي أن يهتم بصياغة تراتيله الإيمانية في ظل فهم كتابي شامل ومتزن لملكوت الله الذي هو هنا والآن أيضًا.

الذي ينادي بفكرة المملكتين، مملكة الله، ومملكة العالم، وبالتالي الوطنين السماوي والأرضي. والتحدي التي ينتجه هذا النموذج هو صراع الازدواجية الذي يصيب عددًا من المسيحيين العاملين في الحقل العام، على سبيل المثال من يعملون في مهنة المحاماة أو جهاز الشرطة. إذ يظل السؤالُ الملازم لهؤلاء بأي المبادئ ينبغي أن نسلك؟ فالمبادئ المسيحية بالنسبة لهم صارت غير متكافئة مع المجال العام الخاصّ بمهنتهم.

أخيرًا، الحياة المسيحية تصنع تحولًا جوهريًّا في مفهومنا للعمل

بخلاف منهجي الاغتراب والازدواجية تجاه نظرتنا للعمل، هناك رؤية كتابية تؤمن أن الإيمان المسيحي يغيّر مفهومنا للعمل في ضوء فهم أشمل لملكوت الله. وتتماشى هذه الرؤية مع اللاهوت المصلح. تنادي هذه الرؤية الإيمانية بأن عقيدة الخلق تؤكد قدسية هذه الحياة الأرضية، وتدعونا لأن ننشغل بها أيضًا كمستقبلنا الأبدي. تؤكد أيضًا على أن التفويض الإلهي الذي أعطاه الله للإنسان لحفظ الأرض والعمل بها لم ينهار بالسقوط، حتى وإن تغيرت بعض أبعاده، مثل ازدياد المشقة في إتمامه. يتضمن هذا النهج الإيماني مبدأ النعمة العامة، الذي يرى أن المجال العام تحت سيادة ملكوت الله أيضًا، وأن الإيمان المسيحي ينبغي أن يكون فاعلًا خارج الكنيسة كما داخلها أيضًا. وخلال السطور الختامية لهذه المقالة، سأعطي تركيزًا خاصًّا على ثلاثة مبادئ لاهوتية مصلحة يمكن أن تساعد في بناء منظور إيماني مسيحي لعقيدة العمل. هذه المبادئ الثلاثة تمثل ترجمةً لفهم عقيدة العمل في ضوء إيماننا بشمولية ملكوت الله في حياتنا وعالمنا. تصف هذه المبادئ علاقة العمل ببعض العقائد الكتابية مثل عقيدة الخلق، النعمة العامة، والرؤية المسيحية للعالم.

أولًا، العمل بين عقيدة الخلق والتفويض الحضاري في سفر التكوين

تخبرنا عقيدة الخلق أن الله هو العامل الأول، وهنا تكمن الرسالة الأولى لقيمة العمل. وهكذا خلق الله الإنسان على صورته ليعمل معه ويشاركه مهام حفظ الخليقة والاعتناء بها. ويرى ابراهام كايبر، اللاهوتي الكالفيني الشهير، أن التفويض الحضاري الذي منحه الله للإنسان في الإصحاح الأول من سفر التكوين، بأن

يتسلَّط على الخليقة ويحافظ عليها، لم ينهار بعد السقوط.[30] ومن هنا تنبع الجذور الأولى لعقيدة الوكالة المسيحية، التي من خلالها يقف الإنسان مسؤولًا أمام الله عما وهبه من عطايا وهبات وبركات. كما تؤكد لنا عقيدة الخلق خيرية الطبيعة، وقدسية عالمنا المادي، إذ إنه صنعة يدي الخالق؛ فلا يجب أن نعاديه أو نتجاهله أو نحقِّر من شأنه، بل أن نتعامل معه وفيه كبركة من الله. وهنا ندرك قدسية وسمو العمل الأرضي بشكل مختلف.

ثانيًا، العمل في ضوء فهمنا لسيادة الله وعمل النعمة العام

إيماننا بعقيدة الخلق وسيادة الله على عالمنا يجعلنا ندرك عمل نعمة الله خارج الكنيسة كما داخلها أيضًا، أو ما يسمى في اللاهوت المصلح بـ"النعمة العامة Common Grace." فتصير كل أعمالنا بمختلف أشكالها هي نابعة من عمل الروح القدس العام في الخليقة، ووسيلة لكبح سطوة الخطية والشر، وتحقيق الخير العام في أرضنا. فيرى تيموثي كيلر أن كل أنواع الأعمال أو المهن هي مشاركة في عمل الروح القدس، فكلها موجودة لخدمة الآخرين، وجميعها قائمة على عطايا ومواهب منحها الله.[31] لذا فإن كل إبداع لخير البشر في مجال العمل هو نتاج مشاركة بين الإنسان والروح القدس خلال إرساليته في عالمنا. ويدفع الفهم المتعمق لهذه القضية بالكنيسة لمباركة كل عمل إبداعي للخير العام للبشر، وتشجيع أبنائها لأن يكونوا فاعلين ومؤثرين في كل مجالات الحياة البشرية من فنون وسياسة واقتصاد... إلخ. وهنا تتجلى روحانية العمل البشري بصورة واضحة، معبِّرةً عن تفاعل الإنسان مع عمل نعمة الله من ناحية، ومحبته لأخيه الإنسان من ناحية أخرى. فيجسِّد العملُ محبةَ الله ومحبةَ القريب.

ثالثًا، العمل كمكوِّن رئيس في الرؤية المسيحية للعالم

يحتاج المسيحيون اليوم لإدراكٍ أشمل لكل عناصر الحياة، في كل مجالاتها من خلال منظور مسيحي متكامل. فلم يَعُد من المجدي اختزال الإيمان المسيحي في مجالات بعينها، مثل مجال العبادة أو مجال الحياة

---

[30] Abraham Kuyper, "Common Grace," In Bratt, J.D. (ed.) *Abraham Kuyper: A Centennial Reader* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1998), p.165-201), 179.

[31] Timothy Keller, "Vocation: Discerning our Calling," Valid on, https://churchleaders.com/pastors/pastor-articles/176526-tim-keller-vocation-discerning-your-calling.html, 8/ 4/ 2020.

الأخلاقية أو غيرها. فقد شوه هذا التوجُّه فهمَ أبعاد الإيمان المسيحي، وأضعف من تأثيره وإرساليته. إن الحياة المسيحية هي دعوة لقبول المسيح، تبعيته، والتشبه به، ومن ثم فإن المسيحي الحقيقي هو من تعكس حياتُه إيمانَه وقناعاتِه المسيحية في كل جوانب حياته، وليس جانبًا واحدًا فقط منها. وهنا يؤكد اللاهوت المصلح أننا في حاجة شديدة كمسيحيين لبناء رؤية شاملة للعالم مبنية على كلمة الله ومعبرة عن إيمان الكنيسة. وبتبنِّي رؤية شاملة للعالم يمكن للمسيحي أن يدرك دعوته في العمل لمشاركة الله في العناية بخليقته وحفظ النظام بها. ومن خلالها أيضًا، يمكن للإنسان المسيحي رؤية سيادة الله وربوبية المسيح في مجال عمله، ومسؤوليته تجاه إلهه كوكيل عما أقامه الله عليه من عمل من ناحية، ومسؤوليته تجاه باقي البشر بدافع الحب والخدمة من ناحية أخرى. في هذه الرؤية للعالم، يعترف المسيحيُّ في دوره داخل ملكوت الله من خلال عمله؛ حيث إن ذلك العمل يكبح انتشارَ الفوضى والشر، ويحافظ على استقرار العالم وتقدمه، كما أنه يساهم بشكل مباشر أو غير مباشر في استرداد ما تشوَّه في واقعنا البشري بسبب فوضى الخطية، ليعود له جمالُه ونظامُه. وهنا يصير العمل أحد مجالات إعلان وتحقيق ملكوت السماوات في أرضنا.

أختتم هذا الطرح المبسط بكلمات اللاهوتي الألماني الشهير يورجان مولتمان Jurgen Moltmann، لاهوتي الرجاء، قائلًا: "إن اللاهوت المسيحي ... لن يكون أبدًا مجرد لاهوت للكهنة والقسوس، لكنه أيضًا لاهوت للعلمانيين في أعمالهم "دعوتهم" في العالم. ولن يقتصر دوره على خدمة الله داخل الكنيسة، بل يمتد ليشمل خدمة الله في الحياة اليومية في العالم."[32]

[32] J. Moltmann, *The Experiment Hope*, trans. M. Douglas Meeks (London: S. C. M., 1975), 11.